المركز العربي للمعلومات

1991

حوار مع عارف الريس حول تنويعات تجاربه الفنية
الرسم بحر واسع والنحت كالارض

تعشق كلامه، تلاحق افكاره، مثلما تعشق اعماله، وتلاحق ظلال اللون والنور فيها. من الصعب على الفنان ان يتكلم، فهو المبدع.. والمبدع فقط، وللاخرين ردة الفعل وحيز الكلمات.

مع عارف الريس كل شيء يتغير، فهو الفنان المتنوع والصريح والجريء، يتكلم كما يرسم.

منذ الاربعينات، وريشة عارف لا تجف، وازميله لا يصدأ. جال في غياهب الرمز الافريقي، واستشف من الغرب، بما تسمح به انفعالاته، ونسج بالوان الشرق همومه وافكاره. ومن الحرف العربي ابتكر العديد من اللوحات والمنحوتات.

عارف يقول: «نعم انا اعرف ما اريد».

داخل صالات القصر الكبير في باريس. التقيناه، فشاهدنا معا ثلاثة معارض فنية عالمية هي: «معرض الواقعية الجديدة» و«معرض الخريف» و«معرض الفياك». وعلى هامش هذا اللقاء اجرينا الحوار التالي:

■ عارف الريس، ما هي انطباعاتك عن ما شاهدته من اعمال حديثة للواقعية الجديدة في القصر الكبير؟

□ لنبدأ «بالواقعية الجديدة».. فمعرض الواقعية الجديدة ابتدأ منذ عام ١٩٣٩ مع مجموعة من الفنانين الرواد امثال بيكاسو وليجي وبراك.. اي الفنانين الملتزمين، اصحاب المواقف المغايرة «للواقعية الاشتراكية» التي كانت في العالم الاشتراكي تلزم الفنان بافكار ومواضيع، في حدود ما يطلبه منظرو الحزب، واجهزة الاعلام التابعة لحركات العمال والفلاحين.

هذا المعرض منذ بدايته اعتبر ان الواقعية الجديدة تحافظ على الغنائية والشاعرية في التعبير الحر. من التجريد الى التجريدية الواقعية، الى الواقعية المركبة، بدون حواجز لحرية الفنان في التعبير الذاتي استمرارا لتحرر الانطباعية والتعبيرية من قيود الاكاديمية الجامدة.

في هذا المعرض اسعدني ان ارى مجموعة من الفنانين العرب امثال شفيق عبود واسعد عرابي، وعدد من الفنانين الجزائريين والمغاربة والتونسيين. حقا ان هذا المعرض يتسم بمفردات تشكيلية منسجمة بين مختلف الاعمال والبلدان. فعمل شفيق عبود يتميز بابعد من الغنائية، فضاء حار يحمل دفء مناخات لبنان. وعمل اسعد عرابي يتميز بتوقيع لوني كانه «نقرات» على العود، انه شاعري رومنسي.

الفنان الجزائري محمد اكسو، عرض جدارية مؤلفة من ستة عشر مربعا، يقص فيها قصة باطنية شفافة، مع تدرج لوني، بين الابيض والرمادي.

لوحة «الحرب والسلم» لعارف الريس

اما الفنان السوري ابراهيم جلال، فهو تعبيري في اعماله، متصوف يفاجيء المشاهد بالوان حارة وتقاسيم سوداء كانها زجاجيات من الكنائس البيزنطية.

اما معرض «الخريف» فقد جمع ما بين الواقعية والسوريالية او انصاف التعبية او التشبيهية المحرفة، اضافة لمنحوتات «زادكين» الرائعة. كما تضمن المعرض مجموعة من اعمال لفنانين تجريديين ينتمون الى غاليريهات مستقلة، شوشت الى حد ما على تناسق العرض، بسبب الانتقال السريع بين تيار فني واخر.

اما انطباعي حول تظاهرة فنون «الفياك»، فاقول بانه «افلاس» باستثناء ما شاهدته من عروض لغاليري «كلود برنار» التي عرضت لفنان واقعي يلتقي مع الكلاسيكية باجوائه الحية، وتاليفه المتحركة. وما عدا بعض الاعمال التجريدية المدروسة دراسة جدية. واعمال اخرى تظهر ملامح العودة الى القيم الغربية الحية، ضد التنسيق التشبيهي «الابرباليسم» وما تبعها من اعمال مدهونة بطريقة جافة كانها الجلد المسلوخ عن جسده.

■ في الخمسينات كنت في باريس، حيث درست في محترفات فرناندليجي، واندريه لوت وزادكين، وفريدلاندر، واتيان دكروه. وها انت الان في باريس من جديد. كيف وجدت العمل التشكيلي الاوروبي بعد هذا الغياب الطويل؟

□ اختلفت الامور منذ اربعين سنة حتى اليوم، فالتجار واصحاب الغاليريهات، والمجموعات الخاصة، وجهوا الفكر الفني الى افاق عالمية لا ترتبط بتراث وحضارة وتاريخ.. انهم بشروا باللاشخصي واللامحلي للوصول الى عالمية، وعمدوا عباقرة للفن، اختفت بسرعة. ولكن الاهم هو الاستمرار في

«صخور وزهور» لوحة من العام ١٩٧٩

التاكيد على القيم المعاصرة التي تاخذ طريقها الى مخيلة الفنان ليترجمها في اعماله. وهذا ما اعطى باريس دور المركز العالمي للمنطلقات الفنية القائمة على ثوابت جمالية واضحة.

■ ولكن هناك تيارات كثيرة ظهرت، تبدو وكانها غير مستقرة، ما رايك في هذه التيارات؟ وكيف ترى انه من الواجب على الفنان العربي ان يتعامل معها؟

□ ان يكون الفنان صادقا مع نفسه او ان يعود دائما الى كتاب الجمال المفتوح، اي «الطبيعة والواقع» وان يحترم الجمال بمفهومه الروحي والبصري، يجب ان يكون هو وحده قائد السفينة الباطنية، تلك مجموعة الاحاسيس والانطباعات والتخيلات. اما الخطر الاكبر فهو الانجراف مع الفكرة الجاهزة، والقيم الجمالية المغلبة كالسردين، هذه مصيبة العصر، وغطرسة فكرية.

■ هل يختلف شعورك عن الماضي عندما تعمل في محترف باريسي؟

□ لا شك بان المناخ هنا، يختلف عن اخر ما عشته في المملكة السعودية. المقاييس مختلفة، هناك النور والصحراء والمدى اللامحدود، وحدتي في هذا المدى كله. كنت اشعر كاني حبة رمل صغيرة، او نملة تتنقل فوق الرمال. كنت اشعر بهذا الاحساس الجميل، كاني واحد من هذا الكل، منصهر في نوره، وهكذا جاءت اعمالي تحمل هذا الشعور.

اما هنا فالانسان والآلة يؤثران الى حد كبير في عملية الخلق والابداع.

■ من المعروف انك عشت فترات طويلة في كل من افريقية ولبنان والمملكة السعودية. وفي كل بلد من هذه، كنت تتكيف فنيا واجوائها، بحيث كان يحمل عملك الفني شيئا من سمات تلك البلاد.

اذن لنبدأ باعمالك الفنية التي انتجتها في افريقية، ماذا تعني لك تلك المرحلة وكيف تفسر لنا السمات الافريقية في اعمالك؟

□ جاءت افريقية بطبيعتها الفنية، ونورها الحاد، ولون انسانها الاسود «منفسا» فهي الجواب لكل عمل فني عرف «بالمرحلة الافريقية».

هناك بعيدا عن باريس، والنقاشات الفنية، والمذاهب المتفرقة، كنت ارتاح الى الطبيعة، واعبر عن كل ما يتفاعل فيها من شعر واحلام وامال وتصورات. الطبيعة الفنية هناك ساعدتني بتقديمها «صورة الاسطورة»، فيها «الفعل وردة الفعل» نتيجة مكررة شكلا ولونا.

■ هل ما زال لديك حنين لذاك الماضي الافريقي؟

□ نعم ما زال عندي الحنين. فمؤخرا قدمت للرئيس الشاعر «سنغور» بمناسبة تكريمه في المغرب، مجموعة من الصور، ورسالة تقدير وصداقة لبلده الذي استضافني، وفسح لي امكانية اكتشاف عالم جديد.

■ لبنان: اين تشعر بغزارة انتاجك فيه قبل الحرب ام خلالها؟

□ انتجت قبل الحرب المناظر الطبيعية الهادئة، وعندما بدأت اشعر بالحرب تهدد وجودنا ومصيرنا، انتجت بغزارة اعمالا تتعلق بالمستقبل مثل «معرض دماء وحرية» و«فصول من واقع العالم الثالث» و«معرض الحب والموت والثورة» وكتاب تحت عنوان «طريق السلم».

تخلل هذه المعارض معرض «الزهور» في غاليري «مانوك» وكان يحمل شوقي الى الحياة الهادئة التي كنا نعيشها في لبنان وافريقية.

■ من المعروف انك كنت فنانا رائدا في لبنان، ورئيسا لجمعية الفنانين التشكيليين، واستاذا في معهد الفنون، لماذا تخليت عن هذا الدور وتركت الوطن؟

□ اولا تشنج الطلاب، واستحالة خلق جو يفسح المجال للتربية الفنية، وكان الطلاب افرادا من المؤسسات الشعبية المتقاتلة. من الصعب على الاستاذ ان يتخذ موقفا محايدا، ومن الاصعب ان «ينزح» في هذه الصراعات المحلية. لذلك عندما جاءت الفرصة لم أتردد في الانتقال الى السعودية، للمساهمة في تجميل مدينة جدة.

ثانيا، الوضع العام هجر معظم الفعاليات المبدعة والمنتجة، ليس في معهد الفنون فقط، بل في كل القطاعات الخاصة والعامة. نأمل ان يعود الامن والاستقرار حتى نعود الى ورشة البناء.

■ في السعودية، بدأت مرحلة جديدة من انتاجك، مرحلة الحرف والتصوف. هل هذا التبديل له علاقة بالعيش في الاماكن المقدسة؟ ام انه تلبية لحاجات السوق؟

□ مرحلة «الحرف العربي» بدأت في تجاربي في روما، كمرحلة من مراحل البحث عن التراث.

انتجت في هذا المجال، وعرضت في متحف روما. وعندي اعمال عديدة، ما زالت في محترفي منذ عام ١٩٦٣.

دخل الحرف في كيفية تصوري للشكل، دون افساد جماليته «بالشفلقة الحديثة» لذلك عندما وجدت نفسي كما تقول قريبا من الاماكن المقدسة، والتراث الاسلامي، شعرت بأني في المكان الذي يساعدني على التعبير باللغة التي يفهمها اصحابها.

فانتجت تآليف نحتية هندسية ككلمة «الجلالة الله» في جدة. و«الله اكبر» في تابوك. و«يا رب» و«الله نور السموات والارض» و«يخرج الحي من الميت» و «انا فتحنا لك فتحا مبينا».

■ ماذا اخذت من الصحراء؟

□ اخذت من الصحراء الحكمة «توازن العقل والحواس والواقع والحلم» هذه هي قاعدة الفن والحكمة على السواء.

هناك في الصحراء اكتشفت النور، والمدى المتجدد والالوان الرائعة، وصفاء الذهن الذي كنت دائما اتوق له بالخيال.

انتجت في المملكة بغزارة اعمالا زيتية عن الطائف والرياض والمدينة المنورة كما انني حققت اعمالا جمالية ومنحوتات حاضرة في ساحات جدة وتابوك والرياض.

■ تنوعت في اساليبك الفنية (تجريدية سوريالية، تعبيرية، واقعية، ومن ثم حروفية). الى ماذا عائد هذا التنوع؟ الى نوعية الموضوع، ام الى البحث عن شخصية فنية محددة؟

□ هذا عائد الى نوعية الموضوع. فكل فكرة تتطلب مني اعادة نظر في اسلوب معالجتها. اني اعرف ماذا اريد. المهم البحث والاستمرار والعمل.

فانا لم اعتبر في يوم من الايام بان الفن نهاية الانسان والانسان نهاية الزمان، فالفن كل متردد ومتجدد، ولو لم يكن ذلك لتوقف الفن وانتهى الفنان منذ ما قبل التاريخ.

هنا انا عربي وشرقي، اختار ما احبه، ولا اخضع شعوري لافكار «مقولبة» على الطريق الغربية الديكارتية.

■ مع اي بيئة من البيئات التي عرفتها، تجد نفسك أكثر انسجاما؟

□ عندما انطوي على افكاري وحواسي، داخل محترفي انسى المكان والزمان الذي اعيش فيه. وعندما افرغ من لحظات الالهام، اشعر بالحنين الى كل الماضي الذي عشته.

■ وأين تجد نفسك اكثر انسجاما، من حيث الاساليب الفنية التي اتبعتها؟

□ لم ارسم في يوم من الايام لاكون تجريديا او سوريالية وغير ذلك... ولكني دائما اتجاوب مع الحاح داخلي للتعبير عما يتاجج في ذهني من افكار وانطباعات ومشاعر.

اما التصنيف فهو من حق الآخرين.

■ ومن حيث الرسم والنحت؟

□ لا شك ان الرسم اوسع مدى وتنوعا، انه بحر واسع تسبح وتسبح فيه... ثم تعود الى الشاطىء. وانت في شوق دائم لتعود اليه.

والنحت كالارض، تحتاج ان تمسك بترابها، وتبني صخورها، وتشعر بالاستقرار الى ما يوفره من ثبات وبنائية.

النحت يحدد لي مقاييس واشكالا، تحكمني احكامها بعقلانية جمالية.

انه يساعدني على جمع نفسي بعد المتاهات والاسترسال الذي يوفره الرسم بالالوان. ولكن في النهاية كلاهما يلتقيان في الاصول والقواعد والنسب.

■ سمعنا عن كتاب حول اعمالك، من تأليف عمران القيسي. هل قرأت هذا الكتاب؟

قرأته مؤخرا في باريس، فاعجبني عمران في بحثه وتحليله، فهو الباحث الذي كتب عني، عن معرفة قريبة.

الكتاب مراجعة عامة، ومناقشة لما كتبته شخصيا، ولما كتب عني، طبعا مع توضيحات شخصية لعمران. وهو يتناول ايضا كل الحركات الفنية في العالم العربي.

انه عمل مهم، لا يخلو بالطبع من بعض الاخطار التي لا أتدخل فيها.

أكرم قانصو

(باريس)